رسائل تلّغرافيّة
(٢٧)

صِفَة حَسَنَةِ الدُّنْيَا والآخِرَة

كتبها
الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أمَّا بعد**:

فهذه بفضل اللَّه ومَنّه والذي لا تتم الصالحات إلَّا به سبحانه، رسالة في بيان معنىٰ حسنة الدنيا والآخرة وكلام أهل العلم فيها وبيان الراجح من المرجوح.

قال شيخ المفسّرين ابن جرير الطبريّ في «تفسيره»: (جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٢/ ٣٢٧ - ٣٣٩):

«القول في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

اختلف أهل التأويل في معنىٰ الحسنة التي ذكر اللَّه في هذا المَوْضع، فقال بعضهم: يعني بذلك: ومن النَّاس من يقول: ربنا أعطنا العافية في الدنيا، وعافية في الآخرة.

[٣٧٣٢] حدثنا . . . . عن قتادة في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قال: في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية.

قال قتادة: وقال رجل: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فمرض مرضًا شديدًا حتىٰ أضْنَىٰ علىٰ فراشه، فَذُكِرَ للنَّبِيّ ﷺ شأنه، فأتاه النَّبِيّ ﷺ فقيل له: إنّه دعا بكذا وكذا فقال: «**إنّه لا طاقة لأحد بعقوبة اللَّه، ولكن قل**: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، فقالها، فما لبث إلَّا أيّامًا أو يسيرًا حتىٰ برأ» [والحديث رواه مسلم في

«صحيحه» (٢٦٨٨)].

وقال آخرون: بل عَنَىٰ اللَّه ﷻ بالحسنة في هذا الموضع: في الدنيا العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنّة، ذكر من قال ذلك:

[٣٧٣٤] حدثنا . . . . عن الحسن قال: الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنَّة.

[٣٧٣٥] حدثني . . . . عن الحسن قال: الحسنة في الدنيا: الفهم في كتاب اللَّه والعلم.

[٣٧٣٧] حدثني . . . . . أخبرنا ابن وهب قال: سمعت سفيان الثوري يقول في هذه الآية: قال: الحسنة في الدنيا: العلم والرّزق الطيب، وفي الآخرة: الجنَّة.

[٣٧٣٩] حدثني . . . . قال السّدّي: هؤلاء المؤمنون، أمَّا حسنة الدنيا: فالمال، وأمَّا حسنة الآخرة فالجنَّة.

[قال الطبريّ:] والصواب من القول في ذلك عندي أن يُقال: إنَّ اللَّه -جلَّ ثناؤه- أخبر عن قوم من أهل الإيمان به وبرسوله مِمَّنْ حجَّ بيته أنَّهم يسألون ربّهم الحسنة في الدنيا والحسنة في الآخرة، وأن يقيم النَّار، وقد تجْمَع الحسنة من اللَّه ﷻ في الجسم والمعاش والرزق وغير ذلك من العلم والعبادة، وأمَّا في الآخرة فلا شكّ أنَّها الجنَّة؛ لأنَّ من لم ينلْها يومئذ فقد حُرم جميع الحسنات، وفارق جميع معاني العافية.

وإنَّما قلنا إنَّ ذلك أوْلىٰ التأويلات بالآية؛ لأنَّ اللَّه ﷻ لم يخصّ بقوله مخبرًا عن قائل ذلك من معاني الحسنة شيئًا، ولا نصب علىٰ خصوصه دلالة دالة علىٰ أنَّ

المراد من ذلك بعض دون بعض، فالواجب من القول فيه ما قلنا من أنّه لا يجوز أن يخص من معاني ذلك شيء، وأن يحكم له بعمومه علىٰ ما عمّه اللَّه». اهـ.

قلت: وما رجّحه ابن جرير الطبريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ هو الصواب حقًّا علىٰ ما قرره أهل أصول الفقه بالاستنباط الصحيح، لجمعهم لآليّة الاستدلال والترجيح بمفاتيح العلوم، ومعرفة القواعد الأصولية التي تمكن من معرفة الحكم الشرعي المراد، علىٰ ما تقرر في الأصول من تعريف علم أصول الفقه الذي هو: «**العلم بالقواعد التي يُتوصّل بها إلىٰ استنباط الأحكام الشرعية من الأدلّة التفصيلية**».

وقد أقام الطبري كلامه علىٰ القاعدة الكلية المجمع عليها من قواعد العام: «**العام علىٰ عمومه، ما لم يردْ دليل علىٰ الخصوص**».

وكذلك أقول: تدخل هذه الآية في العموم وإن كانت في مناسك الحج، فتكون عامة في لفظها، كما تقرر في القاعدة الأصولية المجمع عليها، والتي نصّها: «**العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب**».

وهذا ممَّا يؤكد ويعضد ما قاله الطبريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهناك قاعدة أخرىٰ من قواعد العام والعموم، وهذا الذي ذكره أبو عبد اللَّه القرطبيِّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥) حيث قال:

«والذي عليه أكثر أهل العلم أنَّ المراد بالحسنتين: نِعَم الدنيا والآخرة، وهذا هو الصحيح؛ فإنَّ اللفظ يقتضي ذلك كلّه، فإنَّ «حَسَنَةً» نكرة في سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات علىٰ البدل، وحسنة الآخرة: الجنّة بإجماع الأمة». اهـ.

ويدل علىٰ قاعدة النكرة ما قاله الأصوليّون:

فقد قال جمال الدين الإسنوي المصري (ت٧٧٢هـ) في كتابه «التمهيد في تخريج الفروع علىٰ الأصول» (ص٤٢٠) المسألة (٩) في الباب الثالث من: «العموم»، الفصل الأول في ألفاظ العموم، قال:

«النكرة في سياق الإثبات: إن كانت للامتنان عمّت، كما ذكره جماعة منهم: القاضي أبو لطيب في أوائل «تعليقه»؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]؛ ووجهه: أنَّ الامتنان مع العموم أكثر؛ إذْ لو صدق بالنوع الواحد من الفاكهة، لم يكن في الامتنان بالجنتين كبير معنىٰ [؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].]، وإذا علمت ذلك فمن فروعه:

«الاستدلال علىٰ طهورية كل ماء، سواء نزل من السماء، أو نبع من الأرض، بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]». اهـ.

قلت: وكتاب «التمهيد» هذا يُدرّس في كل الجامعات والمعاهد الشرعية في العالم الإسلاميِّ؛ لأهميّته في جمع قواعد أصول الفقه، التي هي عمود خيمة الفتوىٰ والاستنباط والترجيح. **ثُمَّ قال القرطبيِّ في النقل السابق:**

«هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمّت الدنيا والآخرة.

قيل لأنس بن مالك رضي الله عنه: ادع اللَّه لنا؛ فقال: «اللَّهُم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النَّار»، فقالوا: زِدْنا، قال: «ما تريدون؟! قد سألت الدنيا والآخرة».

وفي «الصحيحين» [البخاري (٦٣٨٩) ومسلم (٢٦٩٠)] عن أنس قال: كان أكثر دعوة يدعو بها النَّبِيّ ﷺ يقول: «**اللَّهُم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النَّار**»، قال: فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها.

وفي حديث عمر: أنَّه كان يطوف بالبيت وهو يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النَّار» ما له هِجِّيرىٰ غيرها، ذكر أبو عبيد [وهجِّيرىٰ: يعني: ديدنه وعادته ودأبه دائمًا بهذا الدعاء «النهاية» (٤/ ٢١٤)، ورواه مسلم في «صحيحه» (٣٧/ ٢٨٩٩)].

وقال ابن جريج: بلغني أنه كان يأمر أنْ يكون أكثر دعاء المسلم في الموقف هذه الآية: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. اهـ.

وقال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٦٣ - ٣٦٥) مثل هذا، ثُمَّ قال:

«فجمعت هذه الدّعوة كُلَّ خير في الدنيا، وصَرَفت كُلَّ شرٍّ؛ فإنَّ الحسنة في الدنيا تشمل كلَّ مطلوب دنيويٍّ من عافية، ودارٍ رَحْبة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلىٰ غير ذلك ممَّا اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها؛ فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأمَّا الحسنة في الآخرة، فأعلىٰ ذلك دخول الجنَّة وتوابعهُ من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأمَّا النجاة من النَّار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام، وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم أبو عبد الرحمن: «من أُعطي قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وجسدًا صابرًا، فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النَّار» [رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٨٧)].

وقال ابن أبي حاتم [في «تفسيره» (١٨٨٦)]: حدثنا . . . . . حدثنا عبد السلام بن شدَّاد قال: كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت: إنَّ إخوانك

يحبون أن تدعو لهم، فقال: «اللّهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النَّار»، وتحدّثوا ساعة حتىٰ إذا أرادوا القيام قالوا: يا أبا حمزة، إنَّ إخوانك يريدون القيام فادع لهم، فقال: تريدون أن أشقِّق لكم الأمور؟!، إذا أتاكم اللَّه في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد أتاكم الخير كُلّه». اهـ.

قلت: هو كما قال أنس -رضي اللَّه عنه وأرضاه-، فعلىٰ الفطن الحصيف المتمسّك بجامع الدعاء هذا، وصفة الحسنة في الدنيا والآخرة، ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدنيا ويُعلّمه التأويل، وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال